الكتب

رسائل سائر

من بلاد العرب الى بلاد اليونان

بقلم صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان

من الأمور اليسيرة العسيرة ، السهلة الممتنعة ، التى تستعصى اجادتها إلا على ذوى الأفهام النادرة ، والأقلام القادرة ، وإن خدعت ظواهرها ، وخيل لأوساط الكتاب أنها هنة هينة ، تستطيع أرباع الاقلام وأنصافها أن تجول فيها وتبرز ، هى تصوير الشعوب تصويراً صادقا ناطقاً قوياً رائعاً . . . يروى عن سائح فرنسى زار انجلترا ، أنه لم يكد يقيم بها أسبوعا حتى حمل القلم وهم بالكتابة عنها ، فلم يقطر قلمه إلا كلمات متقطعة وأسطراً ركيكة فلم يشأ أن يرد ذلك الى قصوره وعجزه ، وزعم لنفسه أنها سبعة الايام لا تجمع فى الذهن محصولاً من الصور يكفى لاجادة التصوير ، وعول على الاقامة شهراً كاملاً ، فانقضى الشهر واهتز القلم ، وانغمس فى الدواة مراراً وجف مراراً ، دون أن يهبط عليه الوحى الذى يرجو ، ولكنه ليس عاجزاً ولا مقصراً ، انما هو الشهر لاينفع ولايجدى كاتباً يريد أن يجيد ، فصبر حتى دار الفلك دورة كاملة ، وانسلخ العام بشهوره الاثنى عشر ، والذهن على ركوده والقلم على جموده ، فأيقن بعجزه عن الوصف وارتحل

فليست الكتابة عن الأقطار والشعوب هينة لينة كما يبدو ، إنما هى مرتبة عالية ، تحتاج الى قلب كبير حساس ، يعى ما يرى من الصور وعياً تاماً ويحسها احساسا قوياً ، حتى لكأنه نشأ بينها ودرج فى أحضانها ، والى عقل راجح لايميل به الهوى ، فيزن القول وزناً دقيقاً عادلاً ، والى قلم قدير ينطق بما يحسه القلب ويحكم به العقل . وقد اجتمعت هذه الادوات الثلاث لدى الاستاذ الجليل الشيخ محمد سليمان ، الذى طوف فى أرجاء فلسطين وسوريا وزار بلاد اليونان ، فلم يعوزه ذلك القلب اللاقط الحساس ، ولا غرابة فهو أبو التلاميذ جميعاً ، الذى وسعت رحمة قلبه ألوف الأبناء ، ولم ينقصه العقل الراجح المتزن العادل ، فقد عرفته منصات القضاء أعواماً وأعواماً ، فاذا ما أحس قلبه واذا ماحكم عقله ، ألفيا قلماً بليغاً ينطقانه فى بيان ساحر خلاب .

طوف الأستاذ فى تلك الأنحاء ، فأحس كثيراً وعلم كثيراً ، فأملى على القلم إحساسه وعلمه ، فصدع القلم ودبج فصولا لست أعرف خيراً منها ، أستغفر الله بل ما يدنو منها فيما كتبه الرحالة المتجولون حديثاً ، وأخذ ينشر تلك الفصول تباعاً فى صحيفة سيارة ، ثم نظمها اليوم فى كتاب ، حتى يطالعه الأخلاف كما قرأه المعاصرون ، فكان هذا الكتاب القيم : رسائل سائر

قرأت الكتاب فراعتنى منه جوانب ثلاثة : التصوير الدقيق ، والملاحظة الصحيحة ، واستخلاص العبرة ، ولو أردت أن أسوق اليك الأمثلة لنقلت اليك الكتاب الذى أدعوك لقراءته من السطر الأول إلى السطر الأخير

على أن فى الكتاب هنات يسيرة ، كنا نرجو أن يبرأ منها كالتطويل القليل الفائدة فى بعض المواطن ، وقلة عدد الصور ، وهذا القليل لم ينل حقه من الاجادة تصويراً وطبعاً ، وكالأطناب فى خالد بن الوليد ، ومن رأينا أن مايمكن تحصيله وأنت هادىء ساكن فى مكتبك ، ليس مما يحسن ذكره فى كتب الرحلة ، وبوقوع بعض الأخطاء اللغوية ، أوالتى نحسب أنها كذلك ، ففى صفحة ٧ يقول « ظاهرة حقة » ونظن أن الصفة هنا لاتؤنث كقولك رجل عدل وامرأة عدل . وفى صفحة ٣٥ ذكر الريح مذكراً وأظنها أو يحسن على الأقل — أن تكون مؤنثة . وفى صفحة ٣٨ ذكر « باقة زهر » والباقة لا تكون إلا للبقل ، أما حزمة الزهر فيقال لها طاقة الزهر .

وانما نذكر هذه المآخذ لضرورة ذكرها فى مجال عرض الكتاب ، على انها لاتشوه من جمال الكتاب فى شىء ما

زكى نجيب محمود